دور علماء مازونة في خدمة المذهب المالكي.

سفيان شبيرة*

مقدمة: إن إحياء التراث وتحيين الميراث بمختلف أنواعه، وأخذ العبرة منه لهـــُو من الأعمال الجليلة، والاعترافات الجميلة للآباء والأجداد، وعليه يندرج هذا البحث التاريخي في إطار ما قرّره الشيخ الحفناوي وهو يقدم كتابه "تعريف الخلف برجال السلف" حينما أشار إلى تساوي بلدان المغرب العربي (الإسلامي) في التأليف خاصة وطلب العلم عامة قائلا: "والظاهر أن القطر الجزائري قد اجتهد قديما في طلب العلم بجميع أسبابه، وأتاه من سائر الأبواب، ووقف على معقوله ومنقوله، فتمكن من أصوله، وكان لعلوم وقته ولراياتها رافعا، مثل أخويه المغربين الأقصى والأدنى...".

وتعتبر حاضرة مازونة من أهم وأبرز حواضر القطر الجزائري التي اجتهدت قديما في خدمة العلم الشرعي بمختلف فصوله وفنونه، وعلى رأس هذه الفصول فصلُ وفنُّ الفقه المالكي، فقد اعتنى علماء مازونة قديما بخدمة الفقه المالكي أيما اعتناء سواء عن طريق التآليف، أو عن طريق حلقات التدريس، أو حتى عن طريق بعض الاجتهادات والاستدراكات على الكتب الأمهات التي عنيت بالاهتمام بالمذهب المالكي، الأمر الذي بإمكانه أن يؤسس لخصوصية المدرسة المازونية في التأصيل للفقه المالكي، هذه الخصوصية التي مازالت لم تعنى بالبحث والتأصيل على الرغم من قيمة الإضافة التي يمكن أن تضيفها لثُنائية المذهب المالكي والمغرب الإسلامي.

هذا وقد ضبطنا دائرة علماء مازونة ليس باعتبار هذه الأخيرة مكان ولادة فقط، بل اتسعت الدائرة لتشمل كل من درس في مازونة أو درس على علمائها.

ومنه فإن الإشكالية المطروحة تتمثل في الآتي: كيف استطاعت حاضرة مازونة بعلمائها أن تسجل وجودها ضمن الحواضر التي ساهمت في خدمة المذهب المالكي؟ أو بصيغة أخرى كيف ساهم علماء مازونة في خدمة المذهب المالكي؟

*- إطار بالمعهد الوطني لتكوين الأسلاك الخاصة بإدارة الشؤون الدينية والأوقاف- غليزان.

وقد حاولت أن أُجيب عن هذه الإشكالية من خلال مبحثين اثنين، ركزت في المبحث الأول على التعريف بمازونة، والحركة العلمية التي شهدتها، بالإضافة إلى ما اصطلح على تسميته بمدرسة مازونة، وخصصت المبحث الثاني للكلام عن انتشار المذهب المالكي في المغرب الإسلامي، ثم التآليف المازونية في المذهب المالكي، ثم دراسة وتدريس المذهب المالكي في مازونة، بالإضافة إلى استدراكات علماء مازونة على مختصر خليل، لأختم بحثي بخاتمة ضمّنتها أبرز النتائج.

المبحث الأول: التعريف بحاضرة مازونة وحركتها العلمية.

المطلب الأول: التعريف بمدينة مازونة.

إن الباحث في تاريخ هذه المدينة يتعثر بعقبة شُحِّ الدراسات التي تناولت تاريخ مازونة، وندرة من تطرق إليها من المتقدمين[1]، لذلك لم يتوصل المؤرخون إلى تاريخ تشييد المدينة، إذ اكتفت المصادر التاريخية بالقول إن مازونة تأسست على أيدي أبناء قبيلة مغراوة، ومنه يمكن القول إنه يعود تأسيس المدينة إلى العصور الوسطى، وبالضبط بين القرن السابع والثالث عشر الهجريين، إذ خلال هذه الفترة لعبت قبيلة مغراوة دورا تاريخيا مهما في المغرب الأوسط[2].

وبذلك اعتبرت مازونة حاضرة من حواضر إمارة مغراوة بالإضافة على مدينة تنس ومستغانم، وظلت على هذه الحال إلى أن اشتهر حالها أكثر بعد الاحتلال الإسباني للمرسى الكبير ووهران، حيث انتقلت إليها مجموعة كبيرة من الأسر المرساوية والوهرانية، مما أدى بالسلطة التركية إلى اتخاذها عاصمة للغرب الجزائري، ليس لكونها كانت مدينة كبيرة أو أنها تفوقت علميا أو حضاريا على مدن أخرى بالغرب الجزائري كتلمسان مثلا، ولكن لكونها كانت في منأى عن الهجومات الإسبانية لوقوعها على سفوح جبال الظهرة وأبعد ما كانت عن الساحل، واستمرت بذلك مازونة عاصمة للغرب الجزائري من 1586م إلى 1701م[3].

ويرجح أحد الرحالة أن تاريخ تأسيس المدينة يعود إلى العهد الروماني، بدليل العثور على أثار وقطع نقدية رومانية بالمنطقة، وهذا ما يؤكده الوزّان حيث يقول: "وهي مدينة أزلية بناها الرومان، حسب قول بعضهم على بعد نحو أربعين ميلا من البحر، ... ويشاهد بقرب المدينة مناطق خربة مما كان بناه الرومان، لا تحمل أي اسم معروف لدينا، لكن مما يدل على أصلها

الروماني العدد الوافر من الكتابات المنقوشة على قطع الرخام"، وفي هذا السياق يذكر الإدريسي أن المدينة كانت موجودة قبل الإسلام بحوالي بضعة قرون[4].

بينما أفاد صاحب الترجمانة الكبرى أن المدينة أسسها أمير بني راشد عام ستين ومائة (160هـ/ 776م)[5].

لكن ما رجحه بعض المؤرخين هو ما ذهب إليه ابن خلدون وأكده أبو راس الناصري حيث أفاد ابن خلدون أن المدينة أُسست من قبل أبي منديل عبد الرحمن زعيم مغراوة في القرن 6هـ/12م، ويقول أبو راس الناصري: "ثم سافرت لمازونة لأول صومي مدينة مغراوة بناها منديل عبد الرحمن أوائل القرن السادس".

أما أصل التسمية فقد تداولته ثلاث روايات:

- تقضي الرواية الأولى أن كلمة مازونة هي اسم لرئيس قبيلة زناتية تدعى ماسون.
- وتذكر الرواية الثانية أن مازونة هي اسم لكتر من النقود كان بحوزة ملكة بالمنطقة، إذ كان هذا الكتر يسمى "موزونة".
- وتذكر الرواية الأخرى أنه كان بالمنطقة ملكا يدعى ماتع، وكانت له بنت اسمها "زونا"، وكان في المنطقة منبع ماء، نُسب فيما بعد هذا المنبع لابنة الملك زونا فأصبح يقال للمنبع "ماء زونا" إلى أن أصبحت بمرور الزمن "مازونة"[6].

ولعل الراجح هو الرواية الأخيرة، لأنه لازالت إلى يومنا هذا تسمية الملك "ماتع" موجودة من خلال ما يسمى بعرش "بوماتع"، الذي يشكل أحد أهم العروش المستقرة بمدينة مازونة القديمة.

ووصفها الوزّان بأنها مدينة متحضرة جدا في القديم، وفيها جامع وبعض المساجد الأخرى، ونفس الوصف نجده عند أحد الرّحالة الألمان حيث يقول: "بأن مازونة منذ القديم بلد العلوم الإسلامية، ولربما أخبرنا أنّ الطالب الذي قرأ الكتب في مازونة، يتمتع بمكانة لا يتطرق إليها الشك كانت بصحنه مدرسة عامرة"[7].

ويذكر الأستاذ مولاي بلحميسي وهو أحد أبناء المدينة عن أحياء مدينة مازونة أنه كان حي أولا سايح في الشمال تقطنه بعض العناصر العربية، وحي بوماتا في الشرق، وحي تايسري

في الجنوب يسكنه أصحاب الحرف والتجار، وحي القصبة في الغرب وهو الحي القديم، وهذا الحي مازال موجودا إلى يومنا هذا[8].

دمرت مازونة عدة مرات حتى كادت أن تختفي لكن إرادة البقاء والعطاء كانت أقوى من رغبة التسلط والانتقام، ثم لأن تمركزها على محور الطريق التاريخي الذي كان يربط شرق الشمال الإفريقي بغربه كان يجدد عليها الأدوار والمهام ومن ثمة الاستمرار في جدلية البناء والهدم فالبناء.

المطلب الثاني: الحركة العلمية بحاضرة مازونة: اعتنى أهل مازونة كغيرهم في ناحية المغرب الأوسط خاصة والمغرب الإسلامي عامة بالعلوم الدينية بمختلف فروعها، إذ كان الفقه الإسلامي أساس هذه العلوم المُعتنى بها، فقد جرى الاعتناء به والعمل على الإفتاء في المسائل اليومية، كما زاد الاهتمام بحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، والبحث في مسائل الأصول، كما اهتم علماء حاضرة مازونة بتفسير القرآن الكريم، وبعض علوم القرآن وفي مقدمتها القراءات، وبرزت التآليف المتعددة حول مناقب أولياء الصالحين، وكتب التدريب على القضاء وأداب المسافر منذ القرن الخامس عشر.

ومن أبرز علماءها:

- أبو عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني المتوفي حوالي القرن 9هـ/15م، والذي شغل منصب قاضي مازونة، له مؤلفات كثيرة من أهمها ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار.

- أبو زكريا يحيى بن أبي عمران المازوني المتوفي حوالي 883هـ-1478م، ولد ونشأ بمازونة ودرس بها على والده ثم انتقل إلى تلمسان، وأخذ العلم عن ابن مرزوق الحفيد والقاسم العقباني وغيرهما، تولى القضاء بمازونة وكان من أكبر فقهاء عصره، ألف كتابه المشهور- كما ستأتي الإشارة إليه- الدرر المكنونة في نوازل مازونة[9].

- أبو عبد الله الثابتي، كان يسميه صاحب البستان يحيى بن إدريس المازوني، كان يحفظ 27000 حديثا[10].

وغير هؤلاء كثير من العلماء الأعلام منهم من بقي بمازونة، ومنهم من سافر إلى تلمسان وغيرها من الحواضر الأخرى ببلاد المغرب الإسلامي[11].

المطلب الثالث :مدرسة مازونة: شهد المغرب الأوسط عموما ومازونة خصوصا خلال القرن السادس هجري تحولات سياسية هامة منها قدوم الأتراك والغارات الإسبانية على السواحل الغربية ونزوح أهل الأندلس، فاختيرت مازونة أول عاصمة لبايلك الغرب الجزائري قبل معسكر ووهران مما زاد في إشعاعها الثقافي والعلمي، ومن أبرز ملامحه تأسيس مدرسة مازونة من قبل الشيخ محمد بن شارف، وهو من النازحين الأندلس سنة 1029هـ، ودرّس بها 64 سنة، فشُدت إليها الرحال من كل فج عميق.

وتكريما لعلمائها الذين ساهموا في الجهاد ضد الإسبان جدّد الأتراك بناءها مرارا وتكرارا، ولعلّ من مشاهير طلبة مدرسة مازونة نجد:

- أبو راس الناصري حيث بلغ عدد أساتذته أكثر من 41 أستاذا جلهم من حاضرة مازونة.

- محمد بن قندوز المستغانمي خريج مدرسة مازونة ثم الأزهر الشريف وتلميذ الدردير.

- محمد بن علي السنوسي الجاهري صاحب التآلف في تاريخ المغرب والجزائر، ومؤسس الطريقة السنوسية[12].

- محمد بن عبد المؤمن الرُّماصي الراشدي.

-الشيخ الزناتي المغيلي الإدريسي.

-الشيخ سيدي بوعبد الله المغوفل[13].

المبحث الثاني: صور من جهود علماء مازونة في خدمة للمذهب المالكي

المطلب الأول: أسباب عناية أهل المغرب بالمذهب المالكي وانتشاره في المغرب الأوسط: كان لظاهرة الاعتناء بالفقه ودراسة الأحكام والقوانين الإسلامية الغلبة والتقديم في هذه الرُّبوع الطاهرة بدماء الشهداء، وإذا تصفحنا كتب التراجم نجد العشرات من الفقهاء من أهل هذه الربوع ولعل ذلك عائد إلى شيئين اثنين:

أحدهما: ناتج عن ظاهرة اجتماعية وهي أن إفريقية وبلاد المغرب في هذا العهد كانا في حاجة أكيدة إلى مباحث فقهية دينية تنظم شؤون البلاد الاجتماعية تنظيما محكما، وتربط بين مختلف طبقاتها المتفككة منذ العهد الجاهلي إلى ما بعد الإسلام، فكان مدعاة إلى تعاطي هذه العلوم الدينية أكثر من غيرها.

ثانيهما: الظاهرة النفسية الملحوظة وهي أن الأمازيغ لما اعتنقوا الإسلام ووجدوا فيه ما يكتنف المسلم في مختلف مجالاته منذ صغره إلى كبره، وما يواجهه في سلوكه الأخلاقي ويصحح علاقته بالإله والكون وبالعالم الآخر وما يواجهه في شؤونه المدنية والقضائية والدولية وغيرها آمنوا بأن العكوف على دراسة القرآن والسنة أو ما يندرج تحت مفهوم العلوم الدينية هو الأساس وهو الجدير بالعناية.

وكان لهذا الاتجاه الفقهي النشيط وللحماسة التي تحلى بها الفقهاء نتائج باهرة في كثرة المتفقهين، وفي وفرة التآليف الفقهية وتأثير الفقهاء على المجتمع ومختلف طبقاته حتى كان الفقيه رجل قانون وإماما ووواليا يحترمه الخاصة والعامة، ويستفتونه في أحكامهم، ويستعينون به على حلّ مشاكلهم.

ويقول القاضي عياض: "...واختلف الناس في السبب الذي انتقل به أهل المغرب عن مذهب أبي حنيفة وغيره إلى مذهب مالك السلفي. فقال ابن خلكان: إنّ المعزّ بن باديس هو الذي حمل أهل المغرب على مذهب مالك وحسم مادة الخلاف في المذاهب، واستمر الحال من ذلك الوقت إلى الآن".

وبذلك بقي المذهب المالكي صامدا ولم يستطع أحد أن يمحوه من المغرب العربي عامة والمغرب الأوسط خاصة، رغم ما قصده البعض منهم من السعي إلى محوه وإزالته من المغرب مرّة واحدة، حتى أنه سئل أحدهم وقد ترك مذهبه وتمذهب بمذهب مالك فلما قيل له: أنت رجل عالم وفقيه قدير متمكن في الفقه ضليع فيه، لما تركت مذهبك، ولجأت إلى فقه مالك مع أن المذاهب كلها من نور النبوة تلتمس؟ فقال: ما قلته: صحيح إلا أني أقول لك: إني درست المذاهب كلها فوجدت أقربها إلى الفطرة السليمة، وإلى السنة الصحيحة وروحها هو فقه مالك بن أنس؛ لأنه نشأ في دار الهجرة[14].

هذا وقد استقر الباحثون على جملة هامة من الأسباب كانت هي الدافع لظهور مدارس الفقه المالكي في مختلف الحواضر الإسلامية كالمدينة المنورة والبصرة(العراق) والقاهرة (مصر) وقرطبة (الأندلس)، بالإضافة إلى حواضر المغرب(القيروان- فاس- تلمسان...)، ولعل من أهم هذه الأسباب:

أ/ منهج الإمام مالك الاستنباطي وأصوله التي بنى عليها مذهبه: حيث استدل الإمام مالك بالإضافة إلى القرآن الكريم على نوعين من السنة النبوية الشريفة:

- السنة المرفوعة المتمثلة في الأحاديث الصحيحة.

- السنة الأثرية والتي تمثلت أكثر فيما اصطلح عليه تسمية "عمل أهل المدينة".

ب/ التخصص المزدوج للإمام مالك: حيث جمع الإمام مالك كلا من ناصية علم الحديث، وناصية علم الفقه، فقد اعتبر الإمام مالك أول من ألف في الحديث الشريف، إذ اعتبر كتاب الموطأ أول كتاب جمعت فيه أحاديث النبوية الشريفة، هذا فضلا عن استيعاب الإمام مالك للفقه الإسلامي بكل فروعه، وهذا ما تجلى في تلامذته، فمنهم من اشتهر بالحديث أكثر من اشتهاره بالفقه كابن حبيب الأندلسي، ومنهم من اشتهر بالفقه أكثر على الرغم من تلقيه للموطأ كعبد الرحمن ابن القاسم[15].

ج/تأثير الإمام مالك بن أنس على المغاربة: لقد كانت لشخصية مالك بن أنس صاحب المذهب المتميز أبلغ تأثير في تحبيب مذهبه إلى الناس عامة والمغاربة خاصة، فبالإضافة إلى كرم أخلاقه ومحبته للناس والتواضع لهم، وتهيبه الشديد من الفتوى وتحرِّيه لما ينقل ويرويه من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، كانت لعنايته بالطلبة المغاربة أبلغ تأثير على انتشار هذا المذهب بالمغرب الإسلامي، وليس أدل على ذلك من تلك الواقعة التاريخية التي نُقلت عنه عندما جاءه كتاب ابن غانم يوصيه بعبد الله بن أبي حسّان اليَحْصُبي، فأكرمه حتى قال عبد الله: "فلم أزل عنده مكرما، وأما الطلبة المغاربة فلم يكن يزدريهم كما فعل زُفر بن الهُذَيْل تلميذ أبي حنيفة الذي كان يزدري عبد الله بن فرُّوخ، بل كان يثني عليهم، ويقول: "إن أهل الأمن والذكاء والعقول من أهل الأمصار الثلاثة: المدينة ثم الكوفة ثم القيروان"؛ فكان لسلوكه هذا الأثر الحسن في نفوس المغاربة[16].

د/ التشابه بين بيئتي الحجاز والمغرب من الناحية الاجتماعية، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون عند الكلام عن بداوة أهل الحجاز ونظرائهم من أهل المغرب، حيث قال: "وأيضا فالبداوة التي كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضًّا عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب".[17]

المطلب الثاني: التآليف المازونية في المذهب المالكي: لقد ظهرت بحاضرة مازونة عدة تآليف في المذهب المالكي، ألفها علماء مازونة سواء ممن ولدوا بأسوارها واستقروا بها، أو ممن تتلمذوا على يد علمائها فصح لنا بذلك نسبتهم لمازونة باعتبار فضل المدينة عليهم، ولعل من أبرز هذه التآليف:

- كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة وهو عبارة عن كتاب جمع فيه صاحبه أبو زكريا المازوني. أجوبة علماء تونس وبجاية والجزائر وتلمسان، ويعتبر الكتاب مصدرا مهما من مصادر المذهب المالكي، اعتمد عليه الإمام الونشريسي في كتابه المعيار المعرب، حتى قال في شأنه محمد النابغة بن عمر الغلاوي:

واعتمدوا نوازل الهلالي ودره النَّثيـــر كـــالائـــي

كذلك مايُعزى لمازونة وهو المسمى الدرر المكنونة

- كتاب تحفة الملوك في حصر أصول الإرث المتروك لمؤلفه الشيخ الحسن بن محمد بن مصطفى المازوني الذي عاش في القرن الثاني عشر الهجري.

- كتاب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق لمؤلفه أبي عمران موسى بن عيسى المازوني (والد صاحب الدرر)، وهو كتاب يقع في مجلد واحد تناول فيه أحكام القضاء والتوثيق على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه[18].

- منهاج السلوك في شرح معاني تحفة الملوك لنفس المؤلف (الشيخ الحسن بن محمد بن مصطفى المازوني)[19].

- كما ألف القاضي عبد السلام كتابا رائعا في الفقه والمسائل القضائية التي تتشرف مكتبة مدرسة مازونة (جامع الترك) بحفظه إلى يومنا هذا[20].

- وكانت لأحمد بن محمد بن زكري المازوني (899هـ- 1493م) عدة تآليف في مسائل القضاء والفتيا منقولة في معيار الونشريسي[21].

المطلب الثالث: دراسة وتدريس المذهب المالكي من قِبل علماء مازونة: لم يهتم علماء مازونة بالتأليف في المذهب المالكي فقط، بل استغرقوا في دراسة وتدريس المذهب المالكي، ويصف أبو راس الناصري[22] الذي زار المنطقة ما كان عليه علماء حاضرة مازونة من الاهتمام بالفقه المالكي دراسة وتدريسا قائلا: "وجدت أولئك الشيوخ بعضهم مشهور بمعرفة الأول (أي

الجزء الأول من مختصر خليل)، والبعض الآخر مشهور بمعرفة الثاني (أي الجزء الثاني من المختصر)، والبعض مقصور على الفرائض لا يتعداها ولا يعرف سواها إلا أن المقصور عليها هو حجة فيها"[23]، ويقصد أبو راس الناصري كلا من الشيوخ مصطفى بن هني، والشيخ مصطفى بن يونس، والشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ الزناتي.

ويصف أبو راس الناصري الشيخ ابن علي المغيلي أحد أعلام حاضرة مازونة قائلا: "إنه صاحب الأصول والفروع في فقه مختصر خليل"، ويروي عن الشيخ صادق بن أفغول أنه "أكثرهم حفظا وأتقنهم للمصنف".

ولعل من أشهر علماء مازونة الذي تولى تدريس الفقه المالكي الشيخ أبو طالب محمد بن علي المازوني؛ فهو الوريث الشرعي لمدرسة مازونة التي ورثها أبا عن جد، فانتصب فيها للتدريس مبكرا، وكانت له حلقة علمية متميزة حافلة بالطلبة، إذ كان يدرس مختصر خليل وشرح الخرشي والزرقاني، وعرف بطريقته المتميزة والمنفردة في التدريس عامة وتدريس الفقه المالكي خاصة، حتى تعجب أبو راس الناصري من حلقة شيخه أبو طالب المازوني، ومن كثرة تلاميذه ومن شعبيته وحب الناس له.

المطلب الرابع: اهتمام علماء مازونة بمختصر خليل شرحا واستدراكا:

أولا: استدراكات علماء مازونة على مختصر خليل: لقد أغفل العلامة خليل وقبله عثمان بن الحاجب في مختصريهما "جامع الأمهات والمختصر" الكلام عن أحكام المغارسة والتصيير والتوليج، إذ لم يفردا لها بابا خاصا كما فعلا مع باقي المسائل الفقهية، والملاحظ على ما ينقله أهل التحقيق في مذهب الإمام مالك رضي الله عنه أن الذين أفردوا للمغارسة بابا في كتبهم هم علماء المالكية في المغرب الإسلامي دون غيرهم من علماء المشرق الإسلامي، وكان من علماء مازونة ممن أفردوا للمغارسة بابا الإمام المازوني صاحب الدرر في كتابه الدرر المكنونة في نوازل مازونة على ما ينقله بعض الباحثين في التراث المالكي[24]، ولعل من أبرز العلماء الذي اهتموا باستدراك هذه المسائل على مختصر خليل نجد الشيخ عبد الرحمن المجاجي[25]، حيث ألف كتابا عنونه بعنوان "التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج"، وللكتاب اسم آخر هو: "التيسير والتسهيل في ذكر ما أغفله الشيخ خليل من أحكام المغارسة والتوليج والتصيير"؛ حيث قام الشيخ عبد الرحمن المجاجي من خلال كتابه هذا على تعقب واستدراك ما

أغفله الشيخ خليل، فتتبع مسائل المغارسة وجمعها في باب واحد، ثم أتبعها بأحكام التصيير والتوليج، وكتب بعدها هذه الأحكام على شكل متن على طريقة الشيخ خليل في مختصره، ثم وضع شرحا على هذا المتن لبيان ما فيه من مقاصد وأغراض[26].

ثانيا: شرح علماء مازونة لمختصر خليل: لقد اعتنى علماء مازونة بمختصر خليل دراسة وتدريسا كما جاء في شهادة أبو راس الناصري، هذا وقد كان للشيخ الرماصي[27]- باعتباره من علماء مازونة نظرا لتلقيه العلم في هذه الحاضرة كما يذكر العديد من الباحثين- حاشية جليلة وقيِّمة على شرح التتائي على مختصر خليل[28].

هذا وقد وصف الشيخ مخلوف في كتابه شجرة النور الزكية الشيخ الرماصي بقوله: "الإمام الفقيه العلامة المحقق الفهامة المؤلف المدقق، أخذ عن شيوخ مازونة ومصر، منهم الخرشي والزرقاني"[29]، ومن أهم شيوخه في الجزائر محمد بن علي الخروبي القعلي الذي أخذ عنه العقائد السنوسية، ومحمد بن شارف المازوني الذي أخذ عنه صحيح البخاري.

وبعد تحصيله للعلم رجع إلى منطقة رماصة واشتغل فيها بالعلم برهة من الزمن[30]، ولعل من أشهر تلامذته الذين أجازهم محمد بن شريف الجعدي والمنور التلمساني وعلي بن أبي طالب، والد أبي طالب المازوني.

اشتهر الشيخ الرماصي بالفقه، وذلك ما تجسد في حاشيته على الشرح الكبير لمحمد بن إبراهيم التتائي على مختصر خليل، وهو المسمى بفتح الجليل شرح مختصر خليل، وفيه مواضع كثيرة جدا حصل له فيها الوهم نقلا وتقريرا وبحثا، نبه إليها المحقق الشيخ مصطفى الرماصي في حاشيته، وقد اعتمد على هذه الحاشية جملة من الفقهاء المالكية، وأشاروا إليها في كتبهم ومؤلفاتهم برموز معينة لعل من أبرز هؤلاء الفقهاء ما فعله البنّاني والدّسوقي اللذيْن أشارا إلى حاشية الرماصي برمز (طفى)، والعدوي حينما أشار إلى شرح الرماصي برمز (محشِّي تت)، بالإضافة إلى ما ذهب إليه الإمام الصّاوي في كتابه بُلْغة السّالك حين أشار برمز (ر) للدلالة على اعتماده على حاشية الشيخ الرماصي.

وقد قال الشيخ ابو محمد العربي بن علي المشرفي في وصفه لشرح الرماصي: "وقد اعتكف الناس بحاضرة فاس وغيرها على حاشيته حين بلغتهم، وودوه هذّب مذهب مالك وحرر نقولها فتلقوها بالقبول، وقد بنى عليها الشيخ بناني الفاسي حاشيته على الشيخ عبد الباقي الزرقاني

فكانت أساس نقوله... وربما حملت الشيخ بناني النفس اللوامة على التنظير في كلامه في بعض المواضع من غير توجيه لتنظيره، فجاء بعده العلامة الرُّهوني بحاشيته يشير فيها إلى تصحيح نقول الشيخ مصطفى الرماصي، ورد ما انتقد عليه بتوجيهات تبين على صحة كلام المنظر فيه"[31].

خاتمـــة: في نهاية هذا البحث يمكن القول إن:

- حاضرة مازونة تعتبر من أهم وأبرز الحواضر العلمية التي خدمت العلوم الدينية والشرعية بمختلف أنواعها وفنونها، وعلى رأس هذه العلوم الفقه المالكي.

- لقد برز اهتمام علماء مازونة بخدمة المذهب المالكي من خلال:

1- دراسة وتدريس المذهب المالكي، وذلك ما عبّر عنه الشيخ أبو راس الناصري عند وصفه لرحلته التي قادته لحاضرة مازونة لتلقي العلم الشرعي.

2- التأليف في المذهب المالكي، ولعل من أبرز هذه المؤلفات كتاب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" لأبي زكريا المازوني.

3- نقد وتطوير المؤلفات التي أُلفت في المذهب المالكي وعلى رأس هذه المؤلفات مختصر خليل، وذلك من خلال كتاب الشيخ عبد الرحمن المجاجي أحد أعلام مازونة- باعتبارها مكانا لتلقيه العلم- والذي عنونه بـــ"التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج"، وللكتاب اسم آخر هو "التيسير والتسهيل في ذكر ما أغفله الشيخ خليل من أحكام المغارسة والتوليج والتصيير".

4- شرح مختصر خليل، أو وضع حاشية على شروح مختصر خليل، وهو ما تمثل في حاشية الشيخ الرماصي- باعتباره تلقى العلم في بداياته بحاضرة مازونة وعلى يد علماء مازونة- على شرح التتائي لمختصر خليل.

5-لم يتوقف أمرُ حاضرة مازونة في خدمة المذهب المالكي عند هذا الحد فقط، بل برز أكثر من خلال مساهمتها في تكوين الكثير من الفقهاء المالكية الذي خدموا المذهب المالكي أيّما خدمة، فبالإضافة إلى الشيخ الرماصي صاحب الحاشية، والشيخ عبد الرحمن المجاجي، نجد كذلك أبو راس الناصري، ومحمد بن قندوز المستغانمي، والشيخ الزناتي المغيلي الإدريسي، والبرزلي- على صحة فرضية حضوره لجلسات علماء مازونة- وغيرهم من العلماء الأجلاء.

- لازال على الباحثين اليوم البحث عن مسألة خصوصية المدرسة المازونية في تناول المذهب المالكي دراسة وتطويرا، إذ وجود العديد من التآليف المازونية والفقهاء المالكيين الذين ينتمون إلى هذه الحاضرة من شأنه أن يُؤسس لهذه الخصوصية المتميزة التي يمكن أن تتميز بها المدرسة المازونية.

الهوامش:

1- المازوني يحي، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق قندوز ماحي، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ص**30.**

2- يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، دراسة وتحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، ج **1** ص**208- 248.**

3- المازوني يحي، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق مختار حساني، دار الكتاب العربي، الجزائر، ج **1**، ص**13.**

4- المازوني، الدرر الكنونة: من مسائل الطهارة إلى مسألة النزاع بين طلبة غرناطة، دراسة وتحقيق بركات إسماعيل رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، **2010**، ص**124-125.**

5- أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، تحقيق: عبد الكريم فيلالي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، **1967**، ص **48.**

6- محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر، **1978**م، ص **55.**

7- هاينريش فون مالستان، ثلاث سنوات في شمال إفريقيا، ترجمة: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، **1976**، ج**1** ص**231.**

8- المازوني، بالدرر الكنونة من مسائل الطهارة إلى مسألة النزاع بين طلبة غرناطة، دراسة وتحقيق بركات إسماعيل، ص**125.**

9- الطاهر جنان: مازونة عاصمة الظهرة، مكتبة الرشاد للنشر والتوزيع، الجزائر، ط**1 - 1426** هـ، **2005** م - ص**43.**

10- أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، **1986**، ص **43/**الطاهر جنان: مازونة عاصمة الظهرة، المرجع السابق، ص**38 .**

11- طاهر جنان نقلا عن: مولاي بالحميسي: دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية من القرن **15** إلى منتصف القرن **20**، ص **93.**

12- بن صديق محمد: الأبواب المأذونة من بلاد مغراوة ومازونة، وهران، **2009**م، ص **103.**

13- جرادي محمد: الرحلة العلمية ودورها في تشكيل المرجعيات الفقهية في الجنوب الجزائري- منطقة توات نمودجا-، بسكرة، **2013**، ص**05.**

14- خير الدين سيب: انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب، أعمال الملتقى الوطني الرابع للمذهب المالكي، الجزائر، **2008**، ص**59**، **60.**

15- نفسه، ص**64**، **65**، **66.**

16- ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر العربي، بيروت، ط **4** (د، ت)، ص **245.**

17- ابو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج **2**، ص**449.**

18- الطاهر جنان: مازونة عاصمة الظهرة، المرجع السابق، ص**43.**

19- بن صديق محمد: الأبواب المأذونة من بلاد مغراوة ومازونة، المرجع السابق، ص**106.**

20- طاهر جنان: مازونة عاصمة الظهرة، المرجع السابق، **49.**

21- هو محمد أبو راس ناصر المعسكري ولد سنة **1150**هـ بنواحي معسكر، أخذ عن والده بمسقط رأسه، ثم هاجر إلى مازونة، وترك ثروة علمية فقهية وعلمية كبيرة جدا، تنيف عن **136** مخطوطا. قندوز ماحي: مقدمة تحقيق كتاب الدرر المكنونة، ص **45.**

22- أبو راس الناصري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، **1990**، ص **43.**

23- المرجع نفسه، ص **10.**

24- هو الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الراشدي المجاجي ينتهي نسبه إلى الشيخ أحمد بن أحمد الغبريني، ولد في عصر عرفت فيه مازونة بعلمائها الأجلاء ء وهو القرن الحادي عشر هجري إذ شهد هذا العصر تأسيس مدرسة مازونة على يد الشيخ ابو طالب محمد بن علي بن الشارف المازوني الغريسي، وما يؤكد تتلمذ المجاجي على علماء مازونة قبل أن ينتقل إلى تلمسان باعتبار مجاورة مجاجة لحاضرة مازونة، وهذا ما يؤكده بن صديق محم في كتابه "الأبواب المأذونة في بلاد مغراوة ومازونة ".

25- عبد الرحمن المجاجي، التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج- دراسة وتحقيق خالد بوشمة، ص**17-47.**

26- الشيخ مصطفى الرماصي هو أبو الخيرات محمد مصطفى بن عبد الله بن مومن الرماصي القلعي، ولد قبل سنة **1046**هـ برماصة التي تقع بجانب بلدة القلعة، ولا تبعد بلدة القلعة حاليا عن مدينة غليزان غلا بحوالي عشر كليومترات.

27- من هؤلاء الباحثين بن صديق محمد صاحب كتاب الأبواب المأذونة في بلاد مغراوة ومازونة.

28- محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، تخريج وتعليق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2003،1، ج**1** ص**482.**

29- لا زال المسجد الذي مارس فيه الشيخ الرماصي التعليم قائمة جدرانه إلى اليوم ببلدة رماصة.

30- محمد إبراهيم علي: اصطلاح المذهب عند المالكية، دار القلم، القاهرة، (د، ط، د، ت)، ص **582.**

31- لحسن مسقمين: اعتناء علماء الجزائر بمختصر خليل، الجزائر، د. ط، **2010**م، ص**11**، **12.**

Resume:

The city of Mazouna is considered amongst the oldest however the most prominent cultural and/or scientific centers that the Muslim world as a whole and the Islamic Maghreb in particular had ever known due to its substantial scientific productions. More to the point, Mazouna contributed very significantly through its scholars in serving Maliki Madhab, one of the four Sunni doctrines of jurisprudence founded by Imam Malik bin Anas. At one extreme, it helped a lot in enhancing the Islamic studies through a range of literary and scientific works among which Abou Zakaria El Mazouni's well-known book *The Hidden Pearls in Mazona's Cataclysms* At the other extreme, it played a key role in explaining and/or treating religious issues through the Teaching Circles.The latter is clearly attested by Abou Raas En-Nassiri. Moreover, it contributed once more in criticising and amending some scientific works that the Maliki Madhab relies on as what exactly happens with Cheikh Abderrahmane El Medjaji when he refers to Khalil in some religious matters.

All the above mentioned elements make Mazouna a prominent cultural and scientific center that is waiting for those who are interested in Islamic and/or religious studies in future documentations.